

الجهل والجهالة

د. محمد سامح سعيد

أستاذ بكلية الهندسة - جامعة القاهرة

=====

الجهل هو عدم المعرفة والجهالة هي الاصرار على عدم المعرفة وتجاهل الحقيقة رغم توافرها والاصرار على المسالك القديمة وما ألف عليه الإنسان دون أن يعمل عقله فلا يريد أن يسمع أو يرى . والبشرية بصفة عامة غارقة فى الجهل والجهالة. قد تختلف الدول فيما بينها من دول متقدمة ودول نامية ودول متخلفة . وقد يختلف الأفراد داخل الدولة الواحدة فى مستوى الجهل والجهالة . لا يغرنك الانتماء لدولة متقدمة ليكون كل من فيها عارفاً مستتيراً . فالغرب عامة والولايات المتحدة بصفة خاصة يمارس أقصى درجات التعصب . والتعصب علامة الجهل والجهالة . الغرب لا يطبق أى حضارة أو ثقافة تختلف عن ثقافته . بل لا يطبق أى جنس من البشر بغير مواصفات الجنس الأبيض . بل وصل الأمر أنه داخل المجتمع الغربى الواحد فإن هناك تمييزاً شديداً بين فئات المجتمع ، من بروتستانت وكاثوليك ، من الأبيض والملون ، من القادمين من ألمانيا أو أيرلندا أو إيطاليا أو بورتوريكو أو تايوان أو اليابان ، قلوب متنافرة ونفوس شتى . ورغم أن المجتمع الأمريكى مجتمع أغراب إلا أنه لا يوجد تسامح يجمع هؤلاء الأغراب . وكم عانى الأمريكان السود على يد الأمريكان البيض لا لشيء إلا لأن الله خلق بشرتهم سمراء . ولاشك أن شعوب الشرق الأوسط لا تحظى بدرجة عالية من الاحترام أو التكريم على سلم التمييز العنصرى لا فى أوروبا ولا فى أمريكا . والأدهى والأمر لو كانت هذه الشعوب مسلمة فهى تكون بذلك فى قاع سلم النقاء البشرى . والغريب أن الحربين العالميتين قامتتا لمحاربة فكرة التمييز الجنسى الألمانى ولتحتطيم الرايخ القائم على الادعاء بالارتقاء . ولكن المنتصرين فى الحرب أخذوا يمارسون نفس التمييز العنصرى والادعاء بالنقاء الجنسى الذى كان يدعيه الألمان . طبعاً للعلم دور كبير فى تهذيب النفس وتقليل الجهل والجهالة ، رغم أن الجهل والجهالة لا ينمحيان تماماً بالعلم والثقافة . فأحياناً يزيد العلم من الإحساس بالاستعلاء ، وتفرز الثقافة مزيداً من

العنصرية . هذا حال الغرب وسر احتقاره للشعوب المتخلفة وخاصة الشعوب الإسلامية ، وبصفة أخص الشعوب التي تتلقى منه مساعدات . أما فى عالمنا العربى والإسلامى فإن الجهل والجهالة يلعبان دوراً آخر فى انغلاق العقل والبعد عن الأسلوب العلمى فى التفكير ، وبالتالي البعد عن أسباب التقدم. فتحول عالمنا العربى والإسلامى إلى سوق استهلاكية لما ينتج الغرب دون أن يضيف إضافة حقيقية لحركة التقدم البشرى . ثم تميز العالم العربى والإسلامى بالقبلية الشديدة وهى مرحلة مسرفة من التعصب ومستوى متدن من الجهل والجهالة . فأصبح الصراع بين فئات المجتمع صراعاً بربرياً مفتوحاً يهراق فيه الدم بلا هدف ولا معنى سوى العداوة المطلقة . إذا كان هناك صراع مسلح فى بعض بؤر التوتر فى الغرب مثل أيرلندا أو أسبانيا فهى حركات سياسية لها هدف تنادى بالانفصال متخذة أسلوباً إرهابياً . لكن فى منطقتنا حين يسيل الدم لا يكون هناك هدف سياسى سوى الكراهية والغيب وتصفية حسابات قديمة تعود لتاريخ بعيد مثل الصراع بين السنة والشيعة فى العراق والصراع بين الفرقاء فى السودان وفى الصومال وغيره . شعوبنا العربية والإسلامية ليس لها عذر ولا حجة لأنها أعطيت النور الذى يحق الجهل والجهالة أعطيت القرآن وسماحة الإسلام . وحتى هذا حوله المتشددون إلى تكفير الآخر وتشدد وحكم على المجتمع وإلى قنابل وسفك دماء. المشكلة أن المعرفة الحقيقية بصحيح الدين ليست متاحة بين الناس . والمعلومات سطحية تأخذ بالظاهر ولا تركز على المضمون والمعنى . وشخصية الرسول الكريم لم تدرس عند العامة . ولكن الذى درسوه هو الغزوات والحروب واللحية والملبس . أين اللين والرفق وسمو الأخلاق والعفو والتسامح والتعايش مع الآخر والرحمة للعالمين . لا مكان للتعصب والتشدد والغلو وتضييق الأفق فى صحيح الإسلام . إن كثيراً من الخطباء يكررون خرافات وقصصاً مدسوسة تبعث على التعجب والملل . وكثير من المتحدثين باسم الدين ينفرون أكثر مما يرغبون وإما يهزلون على الفضائيات فيما يستوجب الوقار . اختلطت المسائل وكثرت الفتاوى ودخل فى الوعظ كل من هب ودب . واهتم الناس بصغائر الأمور . وكثرت البرامج الإعلامية السخيفة عن الجن والعمل والسحر والشعوذة ونقاهاات الأمور . ما أحوجنا أن نفهم وأن نعمل أكثر مما نتكلم وأن نخلص

الله لا أن نسعى للمظاهر أمام الناس . ما أحوجنا أن نحول ما لدينا من طاقة إلى ما ينفع المجتمع ، وأن نطبق الحديث : خيركم أنفعكم للناس. ما أحوجنا أن نتوقف عن الحكم على الآخرين : هذا مؤمن وهذا كافر . ليس هذا شأن البشر إنما هو مهمة الإله . كفى لعبة التأله Playing God . ولينظر كل إلى نفسه أولاً فهو ملء بالأخطاء والنواقص والعيوب . لا شيء يزيل الجهل والجهالة إلا صحيح الإيمان المختلط بالعلم والتفكير والتدبر وبالانفتاح الذهني وقبول الفكر المختلف والاستماع إلى الآخر والنظرة المنفتحة للحياة . هذا الذى يحضنا عليه القرآن : التدبر والتفكير ، ويخاطبنا : يا أولى الألباب . هذا ما يميزنا عن شعوب العالم كله . ومع ذلك تركناه وراء ظهورنا فى سلوكنا . ولا مانع من ترتيله وحفظه وسماعه . والأجدر أن نعمل به خلقاً وإخلاصاً وتفانياً وتسامحاً وصدقاً مع الله ومع النفس ومع الآخرين .